صناعة المعاجم إثراء لرصيدنا اللساني و تحقيق لأمننا اللغوي.

أ.عطية طيبـــاوي

جامعة زيان عاشور الجلفة

اللغة رصيد يسند ظهور الأمم ، يغني الجراب التراثي ويُسْلم إلى الحفظ والبعد عن الزلل ، وهي عضادة الباب ومرجع أولي الألباب ، وأمنا لكل أمة تبتغي إرساخ هويتها ومعالم مجدها .

واللسان العربي كائن حي لا يكفّ عن النمو ولا عن مسايرة الأحوال والعصور ، متجدد يفرض وجوده مع الخصوم ، متماشيا مع التمدن ومستجدات الحياة من غير تخلّف ولا توان ، بسعته وفضله وعلوّ مكانته ،كما أرشد إلى ذلك الزبيدي في مقاصده العشرة .

وما فتئت معاجمنا أهمّ رافد لغوي ،جعل يافوخ العربية يلامس عنان السماء ، لتتّضح من إثره تلك الذاتية العربية الموطدة ، وليس بدعا من القول بعد ذلك أن نعدّها أسباب سؤددنا وأمنا للغتنا .

أما واللغة تشهد تناوشا كبيرا بعضه ظاهر للعيان ، وآخر متبطّن ، ومثالب خفية ومزاحمة عامية وضرّة لهجية ، فما بالنا نلحظ ذلك وأنفسنا مشرئبة إلى معين لايعرف نضبا ، وماض يشعّ مجدا ، ذلك الموروث الحضاري اللغوي الذي سطرته" أنامل من صدقت طويتهم ، وقويت مثابرتهم ، فكيف لنا أن نتذوق عذب أصالتهم ، ونتدبّر رائق حصادهم "– على حدّ تعبير الأستاذ الجابري سالت – ، ونحن نشكو استعصاء المصادر ومدلهمات الطرائق

لذلك كان لزاما أن نطرح ملمحا لعله يكون رصيدا لشبابنا ، ومن ثمّ إفراز آليات عرضه وتوضيحه ، فلاحت لنا فكرة صناعة المعاجم وطرق عرضها تحت مبدأ موسوم بـ" بناء المعاجم إثراء لرصيدنا اللساني وتحقيق لأمننا اللغوي

ولا يراودنا في كلّ هذا إلاّ أن يكون المعجم عونا للطلاب في بناء أساس لغوي مائز، تنمية لرصيدهم اللغوي وتعزيزا لهويتهم ، وهذا ما نادى به الدكتور علي القاسمي في ضرورة الاهتمام بالثقافة المعجمية للطلاب ، مما يوثق صلاتهم بفنون المعرفة ، ولقائل أن يقول ما السبيل إلى استكناه هذه المصادر والبضاعة مزجاة والإرادة باهتة وهزيلة .

وحتى يتأتى الظّفر بذلك كان لابدّ من البحث عن فكرة مثلى تعرض هذا المعين الزاخر ، فأردنا طرح مسلك الجذر اللغوي ، ومن ثمّ الوقوف على أبنيته ومتعلّقاته المختلفة بمنهجية لعلّها تكون بعون الله دقيقة ومرغّبة في آن واحد . فيجد الطلاب بعد ذلك أنّهم سعوا إلى تحصيل ملكة علمية عبر التعامل مع مصادر وأمّهات لغوية وتراثية وغيرها ، كان الولوج إليها من الصعوبة بمكان.

وقد جاء هذا المقترح المتواضع على خطّة إليك بيانها :

. مقدمة .

. المبحث الأول : اللسان العربي والأمن اللغوي .

. المبحث الثاني : المعجم واكتساب المناعة اللغوية .

. المبحث الثالث : الجذر القرآني وتنمية الرصيد اللغوي .

. خاتمة : وتحوي خلاصة البحث ومقترحات للإفادة .

المبحث الأول : اللسان العربي و الأمن اللغوي

تعتبر اللغة المخزون الثقافي والمعرفي لكل أمة تسعى إلى المجد وتنشد أسس ووسائل الحضارة ، كما أنها سياج منيع في وجه التهجين اللغوي والغزو الثقافي ، واللغة في شكلها الملفوظ والمكتوب أداة عجيبة تنتقل بها الأشياء التي تقع عليها حواسنا إلى أذهاننا ، فاللغة هي الجسر الذي يصل بين الحياة والفكر(1).

واللغة أيضا تجسّد وتنقل إبداعات وانجازات كل شعب، فضلا عن هويته وذاتيته، كما أنّها مصدر عزة ومكانة ، فما ارتفعت لغة شعب إلا ارتفع وما ذلّت لغة شعب إلاّ ذلّ .

وما من شك أنّ اللسان العربي حامل تراث وناقل معرفة وشاهد على الجذور التي استلهم منها الغرب نهضته الحديثة في كل العلوم النظرية والطبية والفلسفية(2).

فاللغة العربية كما هو مشهود لها أنها عريقة كثيرة المفردات و الأساليب والطرق التي يبنى بها الكلام ، وعلى من يتحدث بها أن يتخير ما يناسب الملتقي وأن يختار منها ما يناسب العصر من حيث المفردات و الأساليب(3).

ثم إنّ اللغة العربية كانت ولم تزل لغة عالمية انتظمت تراث الإنسان شعرا ونثرا ، و أدبا وعلما ، وهي لغة نامية متجددة تستجيب لحاجات الإنسان و إبداعاته واختراعاته(4).

ومنه فإن اللغة هي حياة الأمم من حيث التراث والماضي ثم الحاضر وما يعقبه ، فهي أداة إيمانه ومعتقده ، ووسيلة تفكيره وعمله ، و أساس تعلمه وتمدّنه، فلا انفكاك للإنسان عن هذا اللسان ، ويكفيه شرفا وفضلا أن الله به علّم آدم وعرّفه على الأسماء ، ثم أنّها نالت شرف الكتاب الكريم فكانت لغته ومنطقه ، وتبقى بعد ذلك تنبض بالحياة لتسهم في إعلاء حضارة انتفع بها كل إنسان على مرّ القرون وتعاقب الدّهور ، أولم تنقل تلك العلوم والتجارب التي أبدع فيها المسلمون وسطرتها أناملهم لتخلص عقب ذلك إلى أنّها مستودع حضارتنا ، مما جعل أحد الغربيين (ارتست رينان) يقرّ بذلك : من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القومية وتبلغ درجة الكمال وسط الصحاري عند أمة من الرحّل ، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها، ودقّة معانيها وحسن نظام مبانيها ،ولم يعرف لها في كل أطوار حياتها طفولة ولا شيخوخة(5)

و إذا كانت اللغة قد وصلت إلى مكانة سامقة ومرتبة عليّة فإن ذلك يُلقي على كاهلها حملا ثقيلا ، وعبئا تنوء به الجبال ، لما قُدّر لها من سعة الانتشار وتزايد الناطقين بها ، وينذر بأخطار تتهددها وتنخر في جذعها مرورا بالمزاحمة العامية والضرّة اللهجية ، ووصولا إلى أقاويل عدم القدرة على مستجدات الحياة ومواكبة التمدّن إضافة إلى إحلال اللغات مكانها في البحث أو التدريس أو العرض...

لذلك كان لابد من أمن لغوي عاجل وهذا ما نبّه عليه أحد الباحثين:

إنّ الأمن اللغوي ...يتطلب الحماية اللغوية التي تعدّ بالنسبة للمواطن حماية هوياته فيشعر بالأمان عندما يسمع لغته يتلاغى بها في كل موقع(6) ، ثم إن الأمن اللغوي يقرن بالغذائي والمائي فكلّ أولئك ضروريات العيش الكريم(7).

وقد جاءت كثير من الدراسات الحديثة لتدق ناقوس الخطر: " إننا أمة لا ننفكّ نعمل على ضياع هويتنا اللغوية وليس من اليسير إقناع الناس بأنّ للتاريخ أطوارا وللقضايا اللغوية محطات ، وهي اليوم غير ما كانت عليه بالأمس ، وقد لا يخفي هؤلاء جميعا استغرابهم الأقصى إذا كاشفناهم بحقيقة جديدة تخلّقت في رحم الأحداث الكونية غير المسبوقة وهي أنّ اللغات الأجنبية لم تعد هي العدو الأول للغة العربية ، و إنّما الذي حلّ محلّه في هذا العداء الشرس النافذ والذي في مستطاعه أن يجهز على العربية فيذهب بريحها هو اللهجات العامية التي غزت منابرنا الإعلامية ومجالسنا الفكرية ثم تسلّلت إلى فصول التدريس والجامعات(8).

و إذا كانت هذه بعض العوائق والمشكلات التي تهدد أمننا اللغوي ، فما السبيل الأمثل إلى تجاوز هذه العوائق وتذليل الصعوبات ؟.

ولعلّ أهمّ إجراء يصبّ في سياق السعي إلى هذا الأمن هو الاهتمام أكثر ببناء المعاجم مع مراعاة تسهيل عرضها ، ولا يراودنا في كل هذا إلاّ أن تكون المعاجم عونا لشبابنا في بناء أساس لغوي مائز ، تنمية لرصيدهم اللغوي وتعزيزا لهويتهم .

المبحث الثاني : المعجم و اكتساب المناعة اللغوية

إنّ اللسان العربي الذي اثبت إعجازه وتحدّيه لكل الألسنة الأخرى وبعد أن رامته كل العلوم والفنون قد جعل بعض الأمم في عصرنا تدعوا لأن يكتب تاريخها ويحفظ أرشيفها به ، وذلك حين أثبت فاعليته ولم تحوله صروف الدهور وعواقب الأزمان.

إذا كانت اللغة هي جوهر التمدّن وكنه التحدّي فإنّه لابدّ لها من خزّان يمدّها بين الفينة و الأخرى ، ولا يصدق هذا إلاّ على المعاجم اللغوية باعتبارها خزائن اللغة التي يستمدّ منها الإنسان ما يغني حصيلته اللغوية ، وينمّيها ويجعلها مرنة طيّعة في مجالي الأخذ و العطاء ، مجال الاستيعاب والفهم والتوسع الفكري والنمو العقلي المعرفي(9).

فالمعاجم اللغوية تعتبر من أعظم ما ابتكره الإنسان لحماية اللغة والحفاظ عليها حيّة نامية متطورة(10).

لذلك كان لزاما علينا أن ندرك المعجم ومراميه ، ونقيّد الجذر ومقاصده ، فالمعجم هو الحلقة الأولى والأخيرة في فنون التعامل اللغوي ، " ولقد كانت الصناعة القاموسية في الحضارة الإسلامية العربية أسبق وأقدم وأنضج مما في تاريخ اللغات الأوروبية المتداولة"(11).

و إذا رغبت في الدليل على ذلك فتفحّص كتاب العين للخليل الذي هو باكورة التأليف المعجمي وأساسه الأول ، حيث أقام البنيان اللغوي على منهج صوتي يوحي بالرصيد اللغويّ الهائل ، ثم تأمّل مقاييس اللغة لابن فارس وكيف سعى إلى إحكام المادة اللغوية ونسجها عن طريقة الدلالة المحورية التي أثبتت إعجاز اللغة بمنهج جديد مبتكر ، وهو إثبات دوران صيغ المادة المختلفة حول معنى أصلي مشترك، وتبصّر أيضا صنيع الجوهري في معجمه تاج اللغة وصحاح العربية الذي افتكّ طريقة جديدة لم تكن معروفة لدى سابقيه ، فقد

أسّس عمله على نظام التقفية وجدّد أمر اللغة وطريقة تناولها عمّا كانت عليه عند أسلافه ، فنخلص بعد هذه النماذج إلى أنّ المعجم يعدّ بحق صمّام أمان للّغة كما أنه صنيع يعرض اللغة وجذورها بطريقة تعذب أسلاتها ، وترغّب في دارسها الغوص فيها وعدم الإعراض عنها .

فالمعجم كأداة لغوية ومعرفية يعبر عن المستوى الثقافي للأمّة وبواسطته يتمّ إرساخ اللغة وتكريس مكانتها واستمراريتها[12].

ولقد سجّلت الظاهرة المعجماتية العربية وعيا تاريخيا موازيا لتطور حضاري وسياسي بات يرسّخ أقدامه[13].

إن هذا الموروث الحضاري القائم على قواعد رصينة والمشبع بالفوائد العميمة الذي نتفيّأ اليوم ضلاله قد أرهق الأوائل ، وحرمهم الدّعة و الاطمئنان، فجزاهم الله كل خير وأجزل لهم المثوبة.

و نحن اليوم إذ نبحث عن نهج جديد للرصيد المعجمي ، فهذا لا يُعدّ انتقاصا من جهد أسلافنا رحمهم الله فقد بهروا العقول و أفحموا الخصوم ، غير أن الحال قد تبدل واستحال علينا محاكاة ما قدّمه ذلك الجيل و لا معشاره ، حيث أنّهم لم يتركوا زيادة لمستزيد ، غير أنّ صيرورة الزمان فرضت أنماطا حديثة ، لذلك كان لابد من صناعة معجمية موجهة لأبناء هذه اللغة ، فالمعاجم هي المناعة اللغوية لهم وخاصة من اتخذ الدراسات اللغوية على اختلاف فنونها مسلكا ، وقد ظهر ذلك في توصيف أحد الباحثين:

"إنّ اهتمامنا بالتأليف المعجماتي ...و تقصّي مراميه و أسسه وتوجّهاته نابع من الأهمية القصوى التي يحتلها في مجال العملية التعليمية...وأن نبيّن مكانة المعجم و أهميته ليأخذ دوره الطبيعي في مجال الدرس اللغوي و ضرورة مسايرته للتطور الحضاري...[14]"

وأيضا أنّ بناء المعاجم على حسب المراحل العمرية والفئات المتلقية له يعدّ مرتكزا هاما لها وتزويد هذه الأخيرة بما جادت به العربية ، من خلال الجانب الجمالي التذوقي في المعجم العربي .

و قد قصدنا في عملنا هذا المعجم لما يحويه من كنوز ومعارف جمّة ، حَمل شارد العربية وواردها هذا من جهة و من جهة أخرى بناء تلك الجذور بطريقة مرغّبة واضحة سهلة ليجد المتصفّح من خلال الإطلا ع على هذه الجذور و المداخل أنه قد اندمج في مصادر و أمّهات لغوية كانت أسماؤها تغرس وجلا في نفسه قبل ذلك ، ثم إن التعامل مع هذه الجذور يكسب الناظر معرفة بحياة اللغة وتطورها و قد جاء في أحد الدراسات:

"متابعة النظر في أصول الجذور المعجميه باحثا عن إمكان تفرّع جذر من جذر في عمق تاريخ العربية وآمادها الغابرة ...أن يربط ماضيه بما آل إليه عبر العصور حتى يصل به إلى ما هو عليه الآن و هكذا يكون الباحث بذلك قد خطا في طريق وعرة ألا و هي اكتشاف ماضي الحقيقة اللـــــغوية و تدوين سيرتها والوقوف على حالها...[15]"

وللوصول إلى هذه الحقيقة نجد أنفسنا ملزمين بالولوج إلى ساحة المعجم ، غير أنّ هذه النزعة النبيلة يجب أن لا تجعلنا نغفل عن المنهج و الطريق " فينبغي أن نخضع نمو القدرة المعجمية... لتدرّج منطقي و بمنهج حتى لا نغلّب الجانب الكمي عن الجانب الكيفي و درجة الرسوخ ووظيفة الاستعمال في المخزون المعجمي"[16].

وعلى هذا وجب عدم النظر إلى المعاجم كميدان للحشد ، فنُسابق إلى حشوها بكلّ غثّ وسمين ، ولكنّ فرض قواعد موضوعية ومنهجية صارمة ، تجعل في المتناول لدى جميع الفئات ، ولا سيّما الناشئة كلّ ما تزخر به المعاجم على ضخامتها ، فيتشرّبوا مفرداتها وتمتزج بأرواحهم ، كما يمتزج الغذاء النافع بأجسامهم ، وبهذا تُكتسب المناعة اللغوية وتحصل الملَكة اللسانية .

المبحث الثالث : الجذر القرآني وتنمية الرصيد اللغوي

لقد طاف بذهني دائما البحث عن رصد للمادة اللغوية وكيفية تناولها ، والتعامل معها أو البحث عن تنمية الرصيد اللغوي، وطريقة عرضه .

وقد هيأ الله لنا من أمرنا رشدا فلاح لنا طَرْق مشروع الجذر اللغوي و الوقوف على متعلقاته من معان معجمية و تفسيرية ، و نحوية وبيانية ، و هذه القراءة المختلفة تجعل الواعظ يبني مقصده من لفظة و المربي يؤسّس درسه من كلمة و الطالب ينشد ضالته من مفردة ، و هذا الأخير هو محور المقتـــــــرح و قد قصرت هذه الجذور عما ورد في القرآن الكريم لأنه لا تلتبس به الألسنة ، و لا يخلق عن كثرة الردّ "فالخميرة خميرة القرآن[17] "

و كان حقيقا بكتاب في كل هذه الخطورة اللغوية أن يولي الكتّاب و الأدباء الأولوية لألفاظه في كتاباتهم ، وخطبهم و ارتجالاتهم ...فإنّ ألفاظا قرآنية عديدة ظلت مقصورة على المصحف محصورة فيه لا نكاد نجدها واردة في غيره[18].

ثمّ إن هذا التوقّع يزكيه نماء الحسّ بالعودة إلى الخطاب السماوي بعد غربة و إخلاد في وحل الأرض، كما يدعم هذا الشعور تظافر القناعات بضرورة العودة إلى قراءة متأنية للقرآن المجيد أداء وفهما و إحساسا وممارسة[19].

ولسائل أن يسأل عن قَصْر هذه الجذور على القرآن الكريم ، فإن الإجابة عن ذلك بدراسة مقارنة من قبل أحد الأساتذة "... بمقارنة جذور القرآن الكريم بجذور العربية وجد أن مجموع جذور القرآن لا يزيد على 15 % من جذور العربية ، و أنّ جذور القرآن هي المادة المستعملة في اللغة العربية من أول الإسلام حتى الآن ،وأنّ 85 % من لغة الجاهلية هذه كلها أصبحت في مادة المعاجم ، أمّا جذور القرآن الكريم فهي التي يجري بها فكر هذه الأمة...[20]

كما أنّ القرآن الكريم أعطى للألفاظ العربية التي استخدمها شهادة خلود أبدي[21] فالكتاب العزيز يُعدّ مدد العربية ، حيث يُنمّي رصيدها ويصقل ألفاظها وجملها ومعانيها.

إنّ هذا المقترح يجنح إلى الابتعاد عن النمطية، و يسعى إلى القدرة على التأثير في المتلقّي و ذلك أنّ هذه الجذور لا تستعمل منعزلة و لا مجتمعة ، بل بواسطة التداعي أو الترابط الذي ينطلق في التبليغ بالبنية جزئيا ، لينهي كليا[22].

كما أنّ الكلمة القرآنية لابدّ لها من رصد و توجيه و غرس في نفوس المتلقين ، فقد قال الجاحظ : "و قد يستخفّ الناس ألفاظا و يستعملونها و غيرها أحقّ بذلك منها ، ألا ترى أنّ الله لم يذكر في القرآن الجوع إلا

في موضع العقاب أو الفقر المدقع... وكذلك ذكر المطر لأنّك لا تجد في القرآن يلفظ به إلاّ في موقع الانتقام ، والعامة و أكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر والغيث(23).

وما يمكن الخلوص إليه فيما يتعلق بمفهوم الجذر القرآني هو أن يمثّل في كلّ دراسة معجمية ، تتوخّى اهتمام الباحثين بالتراث اللّغوي وما تفرّع عنه حجر الزاوية والركن الأهم .

خاتمة:

لقد تمكّن سلطان اللغة العربية عبر أزمنة خلت من الأفئدة والأرواح ، وعمل من خلال ذلك على تجفيف منابع اللهجية ، والتي صقلتها وسائله في بعض الأحيان ، كما دعى إلى التحرير اللغوي من كل المعوّقات والمشاكل.

وما دام هذا الأخير يرتع في رحاب المعاجم العربية ، فإن حرارة حياته لا تعرف انقطاعا ، ونسله يترى لا يشهد بترا ، ولا شكّ أنّ عرين هذا اللسان هو كتاب ربنا عز وجل الذي لم تنل منه صروف الزمان ولا متقلّبات الأحوال، ولم يلجه التحريف والتبديل {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: 9]

ومنه فإنّ معادلة اللغة العربية من خلال هذا الطرح يمكن أن تكون : اللسان العربي من خلال المعاجم العربية بإمداد قرآني ، ثمّ إنّ هذه البوتقة اللغوية " المعاجم" قد كتب القرآن خلودها وجعلها تسيح في شعاب الحياة ، ولولاه لذهب اللسان وانمحى أصله وقطع فرعه ، وقد ابتغى كتاب خالقنا لألسنتنا مرافئ الأمن والسعادة ، وجنّبها المثالب والانتكاس كما أمدّها بعنصر النضارة ووقاها سمات الذبول .

وإذا كانت هذه محامد لغتنا ومن ورائها معاجمنا المعطاءة ، أليس من الحريّ أن نتذكر جانب الوصل ونؤدي مكارم الإحسان ، ونئد العقوق ومسالك الهجران .

وللتصالح مع لساننا العربي كان لابدّ من طرح مقترحات للإفادة ولعلّ المجامع اللغوية كانت السبّاقة لذلك ومنها :

. العمل على تسهيل الصلة بين المعجم والفئات المتعطشة لتلقيه .

. إدراج مقياس المعاجم في المراحل التعليمية .

. ربط وشائج المفردة القرآنية بالفنون المعرفية اللغوية الأخرى كالدلالة وغيرها .

وصلى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

الهوامش:

1- محمد المبارك، فقه اللغة و خصائص العربية، دار الفكر، بيروت لبنان، 2005م، ص 14.
2- عبد السلام المسدي، العرب و الانتحار اللغوي، دار الكتاب الجديدة، ط 1، 2011، ص 25.
3- حسنى عبد الجليل يوسف، اللغة العربية بين الأصالة و المعاصرة، خصائصها و دورها الحضاري و انتصارها، دار الوفاء الإسكندرية، ط1/ 2007، ص 10.
4- المرجع السابق، ص 07.
5- إدريس بن الحسن العلمي، في اللغة، دار النجاح، ط1/ 2001، ص 21.
6- صالح بلعيد، في الأمن اللغوي، دار هومة، 2010، ص 26.
7- المرجع السابق، ص 43.

8- عبد السلام المسدي، مرجع سابق، ص 20.

9- أحمد محمد المعتوق، الحصيلة اللغوية، أهميتها، مصادرها، وسائل تنميتها، 1996، ص 222.

10. المرجع السابق.

11. صالح بلعيد، مرجع سابق، ص 185.

12. عبد الغني أبو العزم، المعجم المدرسي أسسه و توجهاته، مؤسسة الغني للنشر، ط 1/ 1997 ص 07.

13. المرجع السابق، ص 21.

14. المرجع السابق، ص 06.

15. إسماعيل أحمد عمايرة، تطبيقات في المناهج اللغوية، دار وائـــل للنشر، ط 1/ 2000، ص 79.

16. المصطفى بن عبد الله بوشوك، تعليم و تعلّم اللغة العربية و ثقافتها، ط 3/ 2000، مطبعة النجاح، ص 317.

17. الشاهد البوشيخي، القرآن الكريم طبيعته و وظيفته، مطبعة أنفو فاس، ط 2/ 2001، ص 39.

18. إدريس بن الحسن العلمي، مرجع سابق، ص 75.

19. الجابري سالت، أولوية الاهتمام بالتعليم القرآني، ط 1/ 2013، ص 06.

20. محمد محمد داود ، دموع الشوباشي بين يدي سيبويه ، شركة يمامة ، ، 2004ص 68-69.

21. المرجع السابق، ص 47.

22. عبد الجليل مرتاض، دراسة لسانية في الساميات و اللهجات العربية القديمة، دار هومة، 2003، ص 127.

23. الجاحظ ، البيان و التبيين، دار الهلال بيروت، 1423 هـ ، ج 1 ص41.

جامعة الجلفة العدد 16